ذكريات ورغبات

ديفيد هارفي

ترجمة بتصرف
أ.د. مضر خليل عمر

عندما كنت في الثانية عشرة من عمري تقريبًا ، تلقيت أول درس لي في جغرافية أمريكا الشمالية . رسمنا خريطة للساحل الشرقي ، وحددنا عليها ما يُسمى "خط السقوط" . امتد هذا الخط من نيو إنجلاند إلى جورجيا ، وسجل مكان التقاء سفوح جبال الأبلاش المتموجة بالسهل الساحلي الرسوبي المسطح . اشتُق اسمه من كثرة الشلالات الموجودة هناك . كانت لهذه الشلالات أهمية اجتماعية لأنها وفرت الطاقة المائية لعدد لا يُحصى من المطاحن ، التي أدت إلى ظهور البلدات والقرى ، ثم المدن الكبرى . اليوم ، يُحدد خط السقوط تقريبًا بالطريق السريع ٩٥ ، الذي يربط سلسلة كاملة من المدن على طول الساحل الشرقي للولايات المتحدة.

بينما كنت أدرس تلك الخريطة في الأيام المظلمة والقاتمة لبريطانيا ما بعد الحرب ، حلمتُ بأنني قد أزور أمريكا الشمالية يومًا ما وأستكشف عجائبها . بدت الفكرة ميؤوسًا منها حينها ، رغم أن لديّ أقارب في الولايات المتحدة (كانوا يرسلون لنا طرودًا غذائية خلال الحرب العالمية الثانية) . كنا فقراء جدًا ، وكان كل شيء بعيدًا جدًا . لم أتخيل حينها أنني سأقضي أكثر من نصف حياتي أعيش على خط الانحدار هذا . لو أخبرتَ صبيًا في الثانية عشرة من عمره يعيش في الأيام اليائسة لبريطانيا ما بعد الحرب مباشرةً أن هذا هو المستقبل الذي ينتظره ، لارتعشت كل عضلة في جسده من الإثارة . كان على ذلك الصبي أن يُنقِّب في خياله (لم يكن التلفزيون قد ظهر بعد ، ولم يكن يذهب إلى السينما إلا مرة كل ستة أشهر) ليُفكِّر في رحلات خيالية تُؤدِّي به إلى ريو، أو رانغون، أو سان فرانسيسكو، أو بيناريس.

وقرر أكثر من مرة الهروب من المنزل واستكشاف العالم ، ليكتشف أنه إذا كان الجو مشمسًا في الصباح ، فإنه يُمطر في فترة ما بعد الظهر (وهي حقيقة بديهية في علم الأرصاد الجوية البريطاني) ، وأن مُشاركة شجرة مُجوَّفة تحت المطر مع مجموعة متنوعة من الحشرات لم يكن مريحًا على الإطلاق مثل الاستحمام في دفء الأم في المنزل . وهكذا بدأ اهتمامه بما أُسمِّيه الآن جدلية المكان والزمان (الطريقة التي تتداخل بها التجارب المكانية دائمًا مع العلاقات المكانية الأوسع).

دراساته الجامعية في كامبريدج
وانهيار إمبراطورية

تغذَّى خيال الهروب والاستكشاف بمعرفة أن العالم مفتوح للاستكشاف . تلك الخرائط التي تُظهر أجزاءً كثيرة من العالم مُلوَّنة باللون الأحمر ، إذ يُشير "الانتماء" إلى بريطانيا بطريقةٍ ما إلى خياراتٍ واسعة النطاق من الأراضي المتاحة للتفتيش . لكن القوة البريطانية كانت في تراجع . كان لدى العديد من أساتذتي في كامبريدج خبرةٌ في الخدمة العسكرية أو الاستعمارية . بدا أنهم يندمون على فقدان الإمبراطورية ، مع قبولهم ضرورة تطورها ، وإن كان ذلك بطرقٍ "معقولة" فقط . من السهل ، بالنظر إلى الماضي ، انتقاد رؤيتهم الإمبراطورية ، ونزعتهم الأبوية ، وتفكيرهم الاستعماري . لكن ما يبقى معي بشكلٍ أكثر إيجابيةً هو الحب الهائل الذي أظهروه للدول والشعوب التي عملوا ودرسوا بينها . من خلال حكايات لا تُحصى ، تعرّفتُ على الصراعات الغريبة بين المستعمرين والمستعمَرين ، بالإضافة إلى الصراع التكافلي الأكثر وضوحًا بينهما حول ما يجب فعله وأين .

تجلّت الصراعات اليومية حول استخدام الأرض ، والسلطة والعلاقات الاجتماعية ، والموارد والمعاني ، في تلك الحكايات ، وما تزال جوهرية في دراستي الجغرافية . كانت اللحظة الحاسمة بالنسبة لي عندما تواطأت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل لمحاولة استعادة قناة السويس من السيطرة المصرية . حتى والدي ، الذي لم يُبدِ أي رأي سياسي علني ، ولكنه كان يُظهر هالة من وطني محترم من الطبقة العاملة ، مُقرّاً بأن الطبقة الأرستقراطية وُلدت لتحكم البلاد والإمبراطورية بسخاء ، عبّر عن اشمئزازه . كنتُ في الحادية والعشرين من عمري فقط ، وفي سنتي الأخيرة كطالب جامعي . تخلّيتُ عن دراستي لفصل دراسي كامل لأجادل بشدة في السياسة ، ثم تحوّلتُ بعد ذلك إلى معاداة الإمبريالية بحزم .

الجدلية المحلية / العالمية

كتبتُ أطروحتي الجامعية عن زراعة الفاكهة في القرن التاسع عشر في منطقتي (كنت أقطف الفاكهة لكسب دخل إضافي - مبلغ زهيد - كل صيف منذ أن بلغتُ الرابعة عشرة من عمري) وواصلتُ هذه الدراسات حتى نهاية أطروحتي للدكتوراه ، "جوانب التغيير الزراعي والريفي في كينت ، ١٨١٥-١٩٠٠." أصبح استكشاف الجذور العميقة لمناظري الطبيعية ، ومنطقتي ، والتنقيب عنها هاجسًا رئيسيًا . كان الاتصال الحسي الحميم بالأرض يسير جنبًا إلى جنب مع دراستها. انغمستُ بعمق في هذا العالم .

كجزء من بحثي لأطروحتي ، قرأتُ الصحف المحلية من عام ١٨١٥ إلى عام ١٨٨٠. استغرق الأمر مني صيفًا كاملاً لأفعل ذلك ، وكانت تجربةً مجزيةً للغاية . تضافرت الحكايات المتتالية لتُكوّن صورةً مُعقدةً تُظهر حياةً شخصيةً مُتشابكةً مع قوى اجتماعية مُجردة ، مما أدى إلى تلك التغييرات البطيئة التي كانت لها في النهاية عواقبٌ عميقةٌ للغاية على المشهد والحياة الاجتماعية . غيّرت الصحف شكلها ومحتواها الاجتماعي مع مرور القرن . عندما جلستُ وتأملتُ ، أدركتُ أنني شهدتُ صعود وهبوط نوعٍ مُعينٍ من الوعي الإقليمي ، واضطرابًا اعتمد على تغيير وسائل النقل والاتصالات ، بالإضافة إلى تغيراتٍ اقتصادية وتكنولوجية واجتماعيةٍ أعم . من الواضح أن سرعة الاتصالات ونطاقها المكاني كانا قوةً تشكيليةً ديناميكيةً في الجغرافيا التاريخية . ومع ذلك ، كان هناك موضوعٌ آخر مُعبّرٌ عنه بشكلٍ كبيرٍ في تلك التجربة .

عندما نظرتُ إلى البيانات المتعلقة بصناعة الجنجل ، وجدتُ أن دورات الزراعة والإنتاج والانتشار المكاني والانكماش ارتبطت ارتباطًا وثيقًا تقريبًا بدورات الأعمال في الاقتصاد البريطاني . كان الضائقة الزراعية ، أو الرخاء في وسط كينت ، نتيجةً لتغير أسعار الخصم في الأسواق المالية في لندن ، والتي اعتمدت على ظروف التجارة بشكل عام . كان رأس المال المالي والأشكال الجغرافية ، كما أصفها الآن ، مرتبطين ارتباطًا وثيقًا وديناميكيًا . أسجل كل هذا لأنني أعد ذلك الصيف من أكثر التجارب تكوينًا في حياتي الفكرية . جرت القراءة ، بالطبع ، على خلفية مزدوجة من الألفة المحلية التي لطالما غرستها ، وخيال الهروب إلى عالم أوسع الذي طالما راودني . لكن التجربة منحتني رؤى وموارد استفدتُ منها منذ ذلك الحين ؛ من الواضح أن هذا هو أساس الكثير مما أكتبه بنفسي عن تداول رأس المال والديناميكيات المكانية والزمانية للعلاقات العالمية والمحلية . المحلي والعالمي ، كما نقول الآن ، وجهان لعملة واحدة.

حب المكان وغطرسة الطبقة

لذا، أفضل الذهاب إلى الأماكن والتنزه . فعلت ذلك في رحلات عديدة إلى السويد في الستينيات وفي باريس لعدة فصول صيف . في سبعينيات القرن الماضي ، عندما كنت أجمع المواد وأكتب عن الجغرافيا التاريخية للإمبراطورية الثانية . كانت رحلاتي الطويلة على متن حافلة جريهاوند في الولايات المتحدة خلال

الستينيات ، مع توقفات لزيارة أشخاص مثل بيل بونج في ديترويت (الذي كان له تأثيرٌ بالغٌ في تكويني) ، أو إلى أعماق المكسيك (حيث صممتُ شكل شرح الجغرافيا) ، نموذجيةً لتجوالي . غالبًا ما يبدو العالم الرسمي للحياة الأكاديمية منفصلًا عن هذه التجارب الملموسة في العالم . هناك دائمًا صلة بين ما أكتبه وما أشعر به ، وما أشعر به يعتمد على مكاني في الحياة وكيفية تفاعلي مع الناس والمواقف . على سبيل المثال ، المشي في شوارع بالتيمور أو التحدث مع عمال برجر كنج هو شعورٌ بالغضب إزاء إهدار الأرواح والفرص ، والظلم الواضح ، وعدم الكفاءة ، والإهمال الجسيم الذي يتطلب التصحيح .

تجارب كهذه تدفعني للكتابة . إنها تُؤجج غضبي الأكاديمي . سمّها حسدًا طبقيًا ، أو تحاملًا ، أو حربًا ، لكن كامبريدج علّمتني عن الطبقات بطريقة لم أختبرها من قبل ، فقد نشأتُ في بلدة رتيبة نوعًا ما ، حيث كانت الفروق الطبقية الرئيسية بين المحترفين (العسكريين بشكل رئيسي) والطبقات العاملة المحترمة والفاسدة . كانت والدة والدي آخر أفراد سلالة أرستقراطية مرّت بأوقات عصيبة . لقد جلبت العار على نفسها بزواجها من بحري محترف ، لكن الإرث الأرستقراطي كان موجودًا . مثل والدي ، كنتُ مستعدًا لقبول بعض مفاهيم الامتياز الأرستقراطي حتى وصلتُ إلى كامبريدج وشعرتُ بصفاته المسيئة بشكل مباشر . أما والد والدتي ، فكان من "طبقة العمال الأرستقراطية" . اسكتلندي الأصل ، وكان عاملًا ماهرًا في نقابة المهندسين المدمجة . كان قليل الكلام ، وكان هادئًا وملتزمًا - وهو أمر جيد أيضًا - لأن زوجته كانت شديدة العزيمة ، وقوية ، وعنيدة . كانت ابنة عامل زراعي طموحة ومتسلطة . كانت أيضًا اشتراكية صريحة ، لا تتسوق إلا من التعاونية .

أتذكر وقوفها ، في خضم الحرب العالمية الثانية ، في التعاونية وهي تندد بوينستون تشرشل (قائدنا الحربي الموقر) وتصفه بأنه "وغد فاسد" لا يكترث للطبقات العاملة . ردت على نظرات الدهشة بالاعتراف بأن هتلر كان "وغدًا فاسدًا" أكثر ، وأن الأمر ربما "كان يتطلب وغدًا فاسدًا واحدًا للتخلص من وغد فاسد آخر" . من الواضح أنني ورثت بعضًا من غضبها السياسي . إذا نظرت إلى تراث طبقتي ككل ، فبالطبع ، هناك طبقة مهمة واحدة فقط مفقودة : طبقة الرأسماليين . أعتقد أحيانًا أنني ورثت معاداة الرأسمالية في حمضي النووي . سنوات التخرج وتغيير المسار حصلتُ على منحة ليفرهولم للدراسة في السويد لمدة عام ، ويرجع ذلك أساسًا إلى أن السويديين لديهم بيانات سكانية أفضل تعود إلى القرن الثامن عشر.

عندما وصلتُ إلى أوبسالا عام ١٩٦٠، أُلقي بي بلا مراسم في غرفة إلى جانب شخص غريب الأطوار يُدعى غونار أولسون - وهو حدث نعترف نحن الاثنين بأنه من تلك الصدف السعيدة التي لها عواقب طويلة الأمد . إلى جانب العديد من الآخرين (تشورلي ، هاجيت ، أولمان ، غاريسون ، بيري ، موريل، وهاجرستراند في الأدوار القيادية) ، ساهمنا في تغيير بنية الجغرافيا الرسمية ، رغم معارضة شديدة ، لإرادتنا الجماعية . (المصدر: أرشيف) كان التأثير المباشر هو أنني تخليت عن مشروع البحث حول التركيبة السكانية السويدية ، وتجولت في جميع أنحاء السويد ، وتعلمت الكثير عن معنى العيش في أرض غريبة ، بينما أعدت تجهيز نفسي بجميع أنواع الأفكار والآفاق لإجراء أنواع جديدة من الأبحاث ، مسلحًا بأسس وأساليب فلسفية مختلفة.

كان هذا هو المشروع الذي شغلني طوال سنواتي اللاحقة في جامعة بريستول ، مع هيئة تدريس موهوبة تضم أشخاصًا مثل مايكل تشيشولم (في سنواته العقلانية) ، وباري غارنر (رائع رفيق الشرب ، بيتر هاجيت ، آلان فراي ، ومايك مورغان) . بلغ هذا المشروع (الذي سانده وشجعه عام من التدريس في جامعة ولاية بنسلفانيا ، مع بيتر غولد كمرشد) ذروته في تأليف أول كتاب رئيسي لي ، "التفسير في الجغرافيا" ، والذي سعيتُ فيه لاستكشاف الأساس العقلاني والعلمي للمعرفة الجغرافية من خلال فلسفة العلم . لكنني أعترف بأنني كنتُ ممزقًا داخليًا طوال معظم هذه الفترة . فمن ناحية ، كان المشروع السياسي والفكري ، وبالتالي

المهني ، يشير إلى وحدة جميع أشكال المعرفة تحت مظلة الوضعية ، وإلى التطبيق العقلاني لهذه المعرفة في المهمة العامة المتمثلة في تحسين المجتمع .

ومن ناحية أخرى ، كنتُ ما أزال أملك تلك الرغبة في التجوال والانحراف ، وتحدي السلطة ، والخروج عن مسار المعرفة المألوف إلى شيء مختلف ، واستكشاف خبايا الخيال والعالم . سلّمتُ المخطوطة في صيف عام ١٩٦٨، مع اقتراب الثورات من باريس وبرلين ومكسيكو سيتي وبانكوك وشيكاغو وسان فرانسيسكو . بالكاد لاحظتُ ما كان يحدث . شعرتُ بنوع من الغباء . بدا من السخافة أن أكتب بينما كان العالم ينهار في فوضى من حولي ، والمدن تحترق . إن التوازن بين المشاركة الفعّالة والعمل الأكاديمي دائمًا ما يكون صعبًا ، وما تزال القضية برمتها تُقلقني بشدة . أحاول الحفاظ على صلة ناشطة من خلال الانتماء إلى الحركات الاجتماعية ، ومستوى معين من المشاركة ، كلما أمكنني ذلك . وتظل هذه المشاركة دائمًا مصدر إلهام مهم ، وآمل أن أتمكن من ترجمة بعض هذا الإلهام إلى العالم الأكاديمي .

<u>جونز هوبكنز وبالتيمور</u>

على أي حال ، شعرتُ بحاجة ماسة لإعادة تنظيم نفسي ، لمعالجة تلك الأسئلة الأخلاقية التي تركتها مفتوحة في كتاب "التفسير" ، ومحاولة تقريبها من واقع الحياة السياسية اليومية . في عام ١٩٦٩، عُيّنتُ في جامعة جونز هوبكنز في بالتيمور للعمل في برنامج متعدد التخصصات يتناول الجغرافيا والهندسة البيئية . كان عامل الجذب الداخلي لجامعة جونز هوبكنز يكمن في تعدد تخصصاتها . وقد ازدهرتُ بفضلها ، تمامًا كما ازدهرتُ كطالب دراسات عليا . أصبحت شخصيات مثل فيسينتي نافارو، وريتش فيفر، ونانسي هارتسوك ، ودونا هارواي ، وإميلي مارتن ، وكاثرين فيرديري ، وأشرف غني ، وأليخاندرو بورتيس، ونيل هيرتز (على سبيل المثال لا الحصر) جزءًا من منحني الفكري .

كان عامل الجذب الآخر هو موقعي في بالتيمور، وهي مدينة تعاني من اضطرابات اجتماعية وإفقار شديد ، وإحدى تلك المدن التي اشتعلت فيها النيران في العام الذي سبق وصولي . أردتُ توظيف مهاراتي في محاولة التعامل مع القضايا الحضرية ، والقيام بذلك بطريقة إصلاحية وتفاعلية مباشرة . كان قسمي الجديد يُجري بالفعل بعض الأبحاث حول الإسكان في المناطق الداخلية من المدن . انخرطتُ على الفور في هذا العمل ، وبالتعاون مع أول طالبة دراسات عليا لي في جامعة جونز هوبكنز، لاتا تشاترجي، أجرينا بعض الدراسات التفصيلية للغاية حول تمويل الإسكان والسياسة الحكومية في المدينة . شكّل هذا الأساس التجريبي لتفكيري في الجغرافيا الحضرية بطريقة جديدة . كل هذا مهد الطريق لنشر كتاب "العدالة الاجتماعية والمدينة"، وهو كتاب يُقارن بين ما أسميته "الليبرالية" و"الاشتراكية" في صياغة القضايا الحضرية .

بدأتُ أقرأ ماركس بجدية حوالي عام ١٩٧٠. كانت مجلة "أنتيبود" قد صدرت قبل ذلك بقليل ، وكان للفكر الاشتراكي والماركسي والمناهض للإمبريالية والفوضوي تركيزٌ مُنظمٌ داخل جمعية الجغرافيين الأمريكيين .(AAG) شكّل بن ويزنر، وجيم بلوت ، وديفيد ستيا ، وديك بيت من جامعة كلارك ، إلى جانب العديد من طلاب الدراسات العليا ، حلقة الوصل ، مع شخصية بيل بونج الرائعة ، وإن كانت صعبة المراس ، التي كانت دائمًا كامنة في الخلفية . كانت تلك أيامًا حافلةً بالاكتشاف بالنسبة لي ، سواءً في بالتيمور أو خارجها . ولأول مرة في حياتي ، بدا لي أن العمل المهني ،اندمجت الحياة الشخصية والسياسية في تيارٍ مضطرب من الابتكار المستمر، مدعومًا بحماسة ثورية وقوة ثقافية .

رُفض بحثنا لعدم موثوقيته وكونه غير ذي صلة . ووصفه قراء الناشر لكتاب "العدالة الاجتماعية والمدينة" بأنه غير متماسك وغير موثوق ، وأوصوا برفضه . كما رُفض مقالٌ رئيسي كتبته بعنوان "السكان والموارد وأيديولوجية العلم" رفضًا قاطعًا من قِبل "حوليات جمعية الجغرافيين الأمريكيين" بحجة أنه لا علاقة

له بالجغرافيا (وقد نُشر في "الجغرافيا الاقتصادية" بدلًا من ذلك). وبحلول الوقت الذي انتهت فيه المعركة ، كانت المعارضة قد أقرت (وإن كان ذلك عادةً مع تحذيرات متعددة) بأن مجال الجغرافيا الماركسية قد يكون متماسكًا فكريًا ، بل وذا صلة تجريبية ، لكنها رفضت الانخراط فيه لأسباب سياسية.

الحدود وباريس

اكتشفتُ سابقًا أن هنري لوفيفر قد كتب عن المسألة الحضرية (استشهدتُ به بإيجاز في كتاب "العدالة الاجتماعية") ، وبدا أن المسألة الحضرية تُؤخذ على محمل الجد في فرنسا . نشر مانويل كاستيلز كتاب "المسألة الحضرية" باللغة الفرنسية عام ١٩٧٢. التقيتُ به واستمعتُ إليه باهتمام كبير عدة مرات في منتصف السبعينيات . شجعني على القدوم إلى فرنسا وأنشأ لي علاقةً في باريس . حصلتُ على متحف غوغنهايم للذهاب إلى هناك بين عامي ١٩٧٦ و١٩٧٧. خرجتُ من التجربة الفرنسية راغبًا في تحويل محاولتي لبناء اقتصاد سياسي حضري أفضل إلى مشروعٍ لإصلاح النظرية الماركسية بأكملها ، بما يُغطي أسئلتها التاريخية والجغرافية بكفاءة أكبر . ابتكرتُ وكتبتُ كتاب "حدود رأس المال" لمعالجة المشكلة . وإن كنتُ قد بدأتُ بغرورٍ مُفرط ، فإن كتابة هذا الكتاب كانت مُذلةً للغاية.

جاء الدعم الحاسم من ديك ووكر (الذي كان آنذاك في بيركلي) ونيل سميث (الذي تداخل عمله الرئيسي في أطروحته ، والذي أصبح لاحقًا كتاب "التنمية غير المتكافئة" ، بشتى الطرق مع مشروعي الخاص) وبياتريس نوفال (كلاهما كان طالب دراسات عليا آنذاك) ، اللذان شاركاني بعض المعاناة . كلما اجتهدتُ في العمل عليه ، ازداد الأمر تعقيدًا . كنتُ يائسًا ، اختبر كتاب "الحدود" حدودي . لقد أخجلني كتابته . عرفتُ حينها كم كنتُ سأجهله . ومع ذلك ، كان أيضًا إنجازًا قيّمًا . لدهشتي وخيبة أملي ، لم يكن كتاب "الحدود" واسع الانتشار ، ولا ، على حد علمي ، مؤثرًا لدى أي شخص باستثناء المهتمين تحديدًا بالمسائل الجغرافية والحضرية .

ثم اكتشفتُ الحدود التي فرضتها القبلية الانضباطية على التبادل الحر. لم يأخذ الاقتصاديون الجغرافيين على محمل الجد ، وكان لعلماء الاجتماع نظريتهم الخاصة في النظام العالمي ، وهكذا . كتابة كتاب كهذا تُكلفني الكثير . لحسن الحظ ، جرّني أصدقائي وزملائي إلى الأنشطة السياسية . كان نيل سميث مُصِرًّا بشكل خاص في تلك السنوات ، مُشيرًا باستمرار إلى مخاطر الانجراف وراء النظرية دون ممارسة سياسية (فقدتُ عدّ خطوط الاعتصام التي أجبرني على السير عليها) ! كما انخرطتُ في العمل التضامني في أمريكا الوسطى ، وقضيتُ وقتًا مع زميل سابق وزوجته ، تشاك شنيل ، وفلور توريس (التي أصبحت لاحقًا مساعدة خاصة لدانيال أورتيغا) ، حيثُ كنتُ أقوم بأعمال دعم للساندينيين (بما في ذلك العمل الصحفي أحيانًا مع شريكتي آنذاك ، باربرا كوبل) ، انطلاقًا من كوستاريكا. هناك ، شهدتُ الآثار المدمرة للإمبريالية الأمريكية بنفسي . يبدو لي ، بشكل متزايد ، أن الجهل بالمعلومات الجغرافية الحقيقية (مقارنةً بالكفاءة في تقنيات نظم المعلومات الجغرافية) وسيلة متعمدة لتحقيق المصالح الإمبريالية الأمريكية الضيقة والأنانية . فلا عجب أن تُهمّش الجغرافيا وتُدرّس بشكل سيء في النظام التعليمي الأمريكي! إنها تسمح لنخبة متميزة بأن تتحكم في العالم دون أي اعتراض جاد.

أكسفورد وما بعد الحداثة

عُرض عليّ - لدهشتي الكبيرة - أستاذية هالفورد ماكيندر في الجغرافيا في أكسفورد . لأسبابٍ غريبة ، ذهبتُ إلى هناك في يناير 1987 ، على الرغم من أنني كنتُ مترددًا في مغادرة بالتيمور (مسقط رأسي آنذاك) وخُفِّض راتبي إلى النصف . وقبل كل شيء ، أعتقد أن أكسفورد ذكّرتني بأصولي . كانت مسألة

إنجلترا وعلاقتها بما كان يُعرف بالإمبراطورية ما تزال عالقة . لقد ذكّرتني بقوة بما تمردتُ عليه منذ زمن طويل . نفّرتني غطرسة أكسفورد ، ولم أستطع فهم كيف يتخذ اليسار في بريطانيا ، داخل الجغرافيا وخارجها ، مواقف متذبذبة تجاه تاتشرية . كتبتُ بعض المقالات المتحيزة بهذا الشأن ، وأثارت استياء الجميع . ثم شرعتُ في كتابة "حالة ما بعد الحداثة" . كان "حالة ما بعد الحداثة" أسهل كتاب كتبته على الإطلاق . انسكب بسرعة البرق دون أدنى تردد أو قلق (ربما لهذا السبب كان سهل القراءة).

أردتُ إثبات أن الماركسية لم تكن ميتة كما ادعى البعض ، وأنها قادرة على تقديم تفسيرات مقنعة للديناميكيات التي كانت قائمة آنذاك (كما فعلت في حالة سوق الإسكان في بالتيمور في عملي السابق) . نجحت الحجة بما يكفي لإثارة معارضة كبيرة ، وأحيانًا غاضبة ، بين العديد من ما بعد الحداثيين (خاصةً ذوي التوجه النسوي القوي). ولأنني كنتُ مستفزًا عمدًا ، فماذا أتوقع ؟ مع مرور الوقت ، اتضح أن كتاب "الحالة" كان سردًا مؤثرًا لا يُستهان به ، وأنه ساعد الكثيرين على فهم الأحداث من منظور لم يكن موجودًا حتى ذلك الحين . أصبح من أكثر الكتب مبيعًا (تُرجم على نطاق واسع إلى لغات أجنبية). ولكن كان هناك جانب جانبي مثير للاهتمام في كل هذا ، لأن نوع الماركسية السائد هنا كان مختلفًا تمامًا عن ذلك الذي ساد في أوائل السبعينيات. لم يأخذ الماركسيون ككل على محمل الجد مسائل التحضر، والجغرافيا ، والزمانية المكانية ، والمكان والثقافة ، والبيئة والتغير البيئي، والتطور الجغرافي غير المتكافئ . نجح كتاب "الحالة" تحديدًا لأنه عد هذه المسائل الجغرافية محوريةً لا هامشيةً في الفكر الماركسي.

الأمل والأحلام

بحلول عام ١٩٩٣، كنت قد عدتُ إلى بالتيمور . لم تكن خطوةً سهلة . انتقلتُ من منصبٍ ذي نفوذٍ في قسمٍ جغرافيٍّ كبيرٍ إلى أن أصبحَ شخصيةً ثانويةً ومُهمّشةً في قسمٍ يُهيمنُ عليه الآن المهندسون في كليةٍ هندسيةٍ ذات طابعٍ شركاتيٍّ مُفرط ، لا تهتمُّ إلا بالمنحِ ودعمِ الأبحاث . عدتُ إلى جامعةِ جونز هوبكنز في ظلِّ ظروفٍ غيرِ مُواتية ، على الرغمِ من وجودِ منصبٍ ما لزوجتي هايدي (عالمةُ محيطاتٍ ذاتِ تدريبٍ قويٍّ في ديناميكياتِ الموائع) ، وحصلتُ على دعمٍ من العديدِ من الأفرادِ في أقسامٍ أخرى.

مع أنني لم أكن أُدركُ ذلك ، إلا أن ثباتي كان مُهددًا بشكلٍ خطيرٍ بسببِ نقصِ تدفقِ الدمِ إلى القلب . أعتقدُ أحيانًا أن صياغتي للديالكتيك كعلاقةٍ بين التدفقاتِ والثباتِ كانت تعكسُ هذه الحالةَ لا شعوريًا ! أجريتُ خمسَ عملياتِ تحويلٍ قلبيةٍ بعدَ أن انتهيتُ من فهرسِ العدالةِ والطبيعةِ وجغرافيةِ الاختلاف . على الرغم من جميع هفواته ، أعد كتاب "العدالة" من أعمق أعمالي الجغرافية . يُقدم الكتاب لي، من منظور جغرافي ، ما قدمه لي كتاب "الحدود" من منظور الاقتصاد السياسي . إن محاولة الحفاظ على النسيج الضام للتجربة ، والفكر، والكتابة ، ومجرد الوجود في العالم ، معًا ، هو جوهر الحياة بالنسبة لي .

لذلك كتبتُ كتابًا بعنوان "مساحات الأمل" ، ركز على الاحتمالات والحوارات حول البدائل (الفصول المفقودة من كتاب "العدالة") . استُلهم الكتاب جزئيًا من "حملة الأجور المعيشية" . في بالتيمور وجونز هوبكنز (مع مشاركة مكثفة من بعض طلابي) ، واستخدمت بالتيمور كواجهة وخلفية لاستكشاف المُثل الطوباوية . لكن اتضح أنها كانت آخر انطلاقة لي في بالتيمور . أصبحت الأمور قاتمة للغاية في القسم والجامعة ، وعندما تلقيت عرضًا مغريًا للانضمام إلى برنامج الأنثروبولوجيا في مركز الدراسات العليا بجامعة مدينة نيويورك (مع نيل سميث وسيندي كاتز كزملاء) ، انتهزت الفرصة . لقد كانت بمثابة دفعة معنوية وفرصة للانخراط في مجال أوسع من الفكر والنشاط . كانت النتيجة نوعًا غريبًا من إغلاق الدائرة ،

حيث كتبت الآن كتابًا عن الإمبريالية الجديدة يأخذني من لحظة تراجع الإمبريالية البريطانية في شبابي المبكر إلى الصعود المفاجئ إلى الإمبريالية العسكرية الأمريكية العلنية اليوم .

يستند الكتاب إلى 30 عامًا من تدريس كتاب "رأس المال" لماركس ، بالإضافة إلى العديد من كتاباتي السابقة ، ولكنه يضيف أيضًا الكثير مما هو جديد . ولكن إذا استعاد إحساسًا بالديناميكيات التي اكتسبها طالب دراسات عليا خلال صيف طويل في قراءة تقارير الصحافة المحلية ، وإذا حوّل نظرةً إمبراطوريةً معينةً اكتسبها في الأيام الأخيرة للإمبراطورية البريطانية إلى قارات المعرفة وكذلك إلى العالم المعاصر... حسنًا ، هكذا تُكتب الكتب ! آمل ذلك ، لأن لديّ الذاكرة والرغبة في تغيير العالم إلى مكان أفضل بكثير مما هو موجود الآن.

الحياة بلا أمل هي موت الرغبة. ولكن في العالم أجمع ، الأشياء هي التي تُحسب . العمليات الأساسية لإنتاجها تتلاشى إلى لا شيء . يمكننا بالطبع أن نأمل أن تُجسّد هذه الأشياء شيئًا ما من الأفراح والإحباطات ، والانزعاجات واللحظات السامية ، التي ينطوي عليها إنتاجها . لكنني أعد كتبي في جوهرها أشياءً ميتة، تبلورت من عملية عيش مستمرة ، من التعلم والاستكشاف . الآن عليّ أن أترك النص ليبقى في العالم وثيقةً ثابتةً ، ساكنةً ، لا تتغير . لكن جدلية الحياة لا تتوقف هنا ، لا بالنسبة لي ولا بالنسبة لك . يمكن للأحلام أن تتحقق ، لو فقط في ذلك الجزء الصغير من الزمان والمكان الذي نستطيع فيه الحفاظ عليها.